درس على الخط رقم 07: نظرية الحتمية التكنولوجية

ولد مارشـال ماكلوهان في 21 جوان 1911 م في كندا وإسـمه الكامل هو هيربرت مارشال ماكلوهان، Herbert Marshal Mac.luhan دخل جامعة مانيتوبا Manitoba وكان ينوي دراسة الهندسة، ولكنه درس الأدب الإنجليزي وحصل على الماجستير في سـنة 1934م .وبعد أن حصـل علـى الدكتـوراه في سنة 1943م من جامعة كامبردج، درّس في عدة جامعات،ومعاهد أمريكية وكندية . ولكن منذ سـنة 1947 عمل أسـتاذا للآداب في جامعة تورنتو إلى أن توفى سـنة 1980م، وقد نشـر ماكلوهان المئات من المقالات في عدة مجلات ومن أهم كتبه التي أصدرها هي:[1]

مجرة غوتمبرغ 1962 la galaxie Gutenberg

معرفة وسائل الإعلام 1964 pour comprendre les media

الحرب والسـلم في القريـة الكونيـة 1968 Guerre et paix dans le village planétaire

يعرض ماكلوهان أربع مراحل تعكس في رأيه تطور الإتصال في التاريخ الانساني ويمكن ذكرها كما يلي:

1- المرحلة القبلية، عصر ما قبل التعلم.

2- عصر كتابة النسخ التي ظهرت في اليونان القديمة.

3- عصر الطباعة : من سنة 1500 إلى سنة 1900 تقريبا.

4- عصر وسائل الإعلام الإلكترونية: من سنة 1900 تقريبا، حتى الوقت الحالي.

1- المرحلة القبلية (مرحلة ما قبل التعلم أو السمعية الشفهية):

تعتبر اللغة من أقدم وسائل الاتصال التي استخدمها الإنسان واعتمد عليها للاتصـال مع الآخريـــــن كما استخدم الذاكرة في تخزين معلوماته مما أدى الى بلوغ مهارة الحفظ لديه، فأصبح للكلمة قوة تعبيرية كبيرة، لذلك فهي أول شكل من أشكال الإعلام والاتصال. ويقول ماكلوهان بما أن اللغة وسيلة اتصـال أساسية فمن دونها لا تتحقق عملية الاتصـال

[1]. محمد عبد الحميد. نظريات الاعلام واتجاهات التأثير. القاهرة: عالم الكتاب،2003. ص356.

الجماهيري بمعناها المعروف، ومن هنا يمكن اعتبار جميع وسائل الاتصال الجماهيرية امتدادا لها (اللغة) لذلك يجب معرفة كيفية معالجتها واستخدامها كوسيلة تعبير وتوصيل وتأثير. لأن الناس يتكيفون مع الظروف المحيطة، وكل اختراع تكنولوجي جديد يعمل على تغيير التوازن بين الحواس، فقد كان الإنسان يستخدم كل حواسه، ولكن في حدود الصوت...

ونظراً لأن الناس في ظل هذا النظام كانوا يحصلون على معلوماتهم أساساً عن طريق الاستماع إليها من أناس آخرين، فقد أقترب الناس من بعضهم البعض، في شكل قبلي، وقد فرض عليهم أسلوب حصولهم على المعلومات أن يؤمنوا بما يقوله الآخرون لهم بشكل عام، لأن تلك هي المعلومات الوحيدة المتوافرة لهم، (فالاستماع كان يعني الإيمان).

2 ـ مرحلة كتابة التي ظهرت في اليونان القديم:

ريشة الكتابة وضعت نهاية للكلام وساعدت في تطوير الهندسة وبناء المدن، وكانت هي الأداة أو الوسيلة الأساسية التي جعلت دورة الحضارة تبدأ، فكانت خطوة إلى الأمام من الظلام إلى نور العقل، فاليد التي قامت بملء صفحات الجلود والرقوق بالكتابة هي نفسها التي قامت ببناء المدن، وتعلم الإنسان رسم ما يقوله (الحديث)، كما تعلم كيف يلون الفكر ويجعل له بناء أو كيان، فالحروف الهجائية جعلت عالم الأذن السحري يستسلم لعالم العين المحايد[2].

3 ـ مرحلة الطباعة:

يقول ماكلوهان أن تطور الصحافة المطبوعة في القرن الخامس عشر بفضل اختراع جوتنبرج للحروف المتحركة كان أكثر الابتكارات التكنولوجية تأثيراً على الإنسان فالمطبوع جعل الإنسان يتخلص من القبيلة، وأصبح الواقع يأتي إلينا قطرة قطرة في الوقت الواحد، فالواقع يأتي مجزئاً ويأتي بتسلسل فهو مجزأ على طول خط مستقيم، وهو تحليلي ومختصر ويقتصر على حاسة واحدة، وعلى وجهة نظر موحدة، ويمكن تكرارها. وبفضل الصحافة المطبوعة حدث تغير جذري، فبدأ الأفراد يعتمدون في الحصول على معلوماتهم أساساً على الرؤية، أي على الكلمة المطبوعة، لذلك أصبحت حاسة الأبصار هي الحاسة المسيطرة، بدلا من الاعتماد على الاستماع، أي على الكلمة المنطوقة، ويقول ماكلوهان أن

[2]. بسام عبد الرحمان المشابقة. نظريات الإتصال. الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2015. ص. 186.

جميع الأشـــكال الميكانيكية برزت من الحروف المتحركة فالحروف نموذج لكل الآلات، فهذه الثورة التي حدثت بفضـــل المطبوع فصـــلت (القلب عن العقل) و (العلم عن الفنون) مما أدى إلى سيطرة التكنولوجيا والمنطق السطري.

4 ـ عصر وسائل الأعلام الإلكترونية:(العودة الى القبلية)

يســـمي ماكلوهان المرحلة التي نعشـــيها حاليا عصـــر (الدوائر الإلكترونية)، تتمثل بشـــكل خاص في التليفزيون والكومبيوتر، فالإلكترونيات بتوســـيعها وتقليدها لعمل العقل البشري، وضعت نهاية لأسلوب تجريد الواقع، وأعادت القبلية للفرد مرة أخرى...

بعدما عمل المطبوع على تقسـيم المجتمع إلى فئات ها هي وسـائل الاعلام الالكترونية تعمـل على ارجـاع النـاس مرة أخرى للوحـدة القبليـة وتجعلهم يقتربون مرة أخرى من بعضـــهم البعض .ومن هنا قال ماكلوهان أن وســائل الإعلام تحول العالم الى قرية عالمية تتصل في إطارها جميع أنحاء العالم...

ويرى ماكلوهان أن الطبقة الاجتماعية العليا (الشـباب) هي من يجيد ويتقن لغة وسـائل الأعلام، وقدم مثال على ذلك في مقارنة بين فرد من جيل التلفزيون وقدرته على إدراكه للنمط، بحيث يتعلم اللغة كلها بما في ذلك التنغيم والأوزان ، بينما الرجل المتعلم يحاول أن يحول الأصوات الى مطبوع في عقله فيتأخر تعلمه، ويبذل مجهودا مضنيا في ذلك3.

الأفكار الأساسية لنظرية الحتمية التكنولوجية:

تعتمد نظرية الحتمية التكنولوجية على ثلاثة افتراضات أساسية:

أولا: وسائل الاتصال هي امتداد لحواس الانسان:

يذهب ماكلوهان أن التحول الأساسي في الاتصال التكنولوجي يترك أثره على الشعوب في تنظيمها وحواسـها، وبدون فهم الأسـلوب التي تعمل بمقتضـاه وسـائل الإعلام، لن نسـتطيع فهم التغيرات الاجتماعية والثقافية في المجتمعات، فأي وســيلة هي امتداد لإلنســـان، تؤثر على تفكيره وسلوكه، فكاميرا التلفزيون هي امتداد للعين البشرية، والميكرو فون هو امتداد للأذان البشـرية، ويرى ماكلوهان أن وسـائل الاتصـال غيرت في نسـب اسـتخدام الحواس،

---

[3]. محمد عبد الحميد. نظريات الاعلام واتجاهات التأثير. القاهرة: عالم الكتاب،2003. ص357

فامتداد أي حاسة يعدل من تفكيرنا وتصرفاتنا وادراكنا للعالم من حولنا، كما أن وسائل الإعلام حولت العالم إلى "قرية عالمية" Village Globale.[4]

وقد اختار ماكلوهان مصطلح "القرية الكونية" ليسلط الضوء على ملاحظته المهمة والتي يرى من خلالها أن وسائل الإعلام تعمل على تكامل كوكب الأرض، أي أنه إذا وقعت حادثة في أي منطقة من العالم يمكن أن تراها وتتأثر بها المناطق الأخرى في ذات الوقت.

ويرى ماكلو هان أن في التقدم التكنولوجي عودة جديدة الى علاقات آنية ومتصلة ومباشرة في التخاطب تشبه العلاقات القبلية.

ثانيا: الوسيلة هي الرسالة:

بحيث يرى ماكلوهان أن طبيعة كل وسيلة وليس مضمونها هو الأساس في تشكيل المجتمعات، ويرى أن الرسالة الأساسية في التلفزيون هي التلفزيون نفسه، كما أن الرسالة الأساسية في الكتاب هي المطبوع، فالمضمون غير مهم، وأن المهم هو الوسيلة التي تنقل المحتوى، ويشير 'ماكلوهان' إلى أن لكل وسيلة جمهورا من الناس الذين يفوق حبهم لهذه الوسيلة اهتمامهم بمضمونها، بمعنى آخر.. التلفزيون كوسيلة هو محور لاهتمام كبير، فكما يحب الناس القراءة من أجل الاستمتاع بتجربة المطبوع فإنهم يحبون التلفزيون بسبب الشاشة التي تعرض الصور والصوت والحركة والألوان.

ويرى ماكلوهان أن بناء الوسيلة ذاتها مسؤول عن نواحي القصور فيها، ومسؤول عن مقدرتها في توصيل المضمون، فهناك وسيلة أفضل من وسيلة أخرى في إثارة تجربة معينة، فمثلا مشاهدة مباراة في كرة القدم أفضل في التلفزيون منها في الراديو، فيبدو أن لكل وسيلة خصائص خاصة بها تجعلها الأفضل في إثارة موضوعات معينة[5].

3- وسائل الإعلام الساخنة والباردة:

1 ـ وسائل الإعلام الساخنة:

---

[4]. كمال الحاج. نظريات الاعلام والاتصال. سوريا: منشورات الجامعة الافتراضية السورية،2020. ص119.

[5] - مي عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص 299.

هي التي تزود الإنسان بعناصر إخبارية كثيرة وتمده بعدد من القوانين والشفرات المساعدة في فك الرموز والدلالات وفهم الرسالة بيسر وسهولة، بغض النظر عن فقر الرسالة وأهميتها.

ويعد المذياع والصور التلفزيونية والسينمائية من الوسائل الساخنة لأنها بليغة ومعبرة ودالة بذاتها بحيث تعفي المتلقي من التخريجات والتأويلات التي قد يضيع معها، والوسائل الحارة لا تقتضي مشاركة الملتقي، فهو يتلقاها براحة وسكينة وكسل.

2 ـ وسائل الإعلام الباردة:

هي تزود المتلقي بعناصر إخبارية قليلة ومحدودة مما يضطره للمشاركة بقوة في عملية إنتاج الدلالة والمعنى استكمالا لملء الفراغات، والفجوات والخطابات الغائبة.وهي تحتاج لقدر كبيرمن الخيال. كبعض الأفلام.

إن تأثير كل وسيلة على بناء المجتمع يتوقف، إلى حد كبير، على درجة حرارتها فإن الوسيلة الساخنة تسمح بمساهمة أقل من الوسيلة الباردة، فالمحاضرة مثلا تسمح بمساهمة أقل من الندوة ، والحكم على تلك الوسائل على أنها باردة أو ساخنة بسبب المدى الذي تشترك به حواسنا في كل منها عند تلقيها.

النقد الموجه للنظرية الحتمية التكنولوجية:

يرى (ريتشارد بلاك) أن (القرية العالمية) التي زعم ماكلوهان وجودها، لم يعدلها وجود حقيقي في المجتمع المعاصر ويوضح أن التطور التقني الذي استند إليه ماكلوهان عند وصفه للقرية العالمية استمر في مزيد من التطور، بحيث أدى إلى تحطيم هذه القرية العالمية وتحويلها إلى شظايا.

فالعالم الآن أقرب ما يكون إلى البناية الضخمة التي تضم عشرات الشقق السكنية التي يقيم فيها أناس كثيرون ولكن كل منهم يعيش في عزلة، ولا يدرى شيئا عن جيرانه الذين يقيمون معه في البناية نفسها، ويمكن أن يوصف هذا التطور بأنه تحول من التجميع إلى التفتيت أو اللامركزية[6].

---

[6] ـ حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد، **الاتصال ونظرياته المعاصرة**، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط7، 2008، ص 276.

لقد ظل الاتجاه الرئيسي لوسائل الاتصال الجماهيرية، حتى ما قبل عشرين عاما، يميل إلى توحيد الجماهير بمعنى نقل الرسائل الاتصالية نفسها إلى قطاعات جماهيرية واسعة، أو توحيد الرسائل وتعدد الجماهير المستقبلة لهذه الرسائل.

أما الاتجاه الجديد للاتصال وتدفق المعلومات على الصعيد العالمي، فقد بدأ يتجه نحو لا مركزية الاتصال، بمعنى تقديم رسائل متعددة تلائم الأفراد أو الجماعات الصغيرة المتخصصة.

إن تصور القرية العالمية بحاجة الآن إلى مراجعة وإعادة نظر، بعد أن جعلت التقنيات الحديثة خبرات القراءة والاستماع والمشاهدة، خبرات فردية معزولة بدلا من تحويلها إلى خبرات جماعية مشتركة وأصبحت جماهير وسائل الإعلام تتجه نحو مزيد من التشتت والتناثر.هذا الموضوع النظام الاجتماعي والبعد الحضاري والقيمي هي السمات التي تميز نظرية الحتمية القيمية عن بقية نظريات الاتصال الأخرى فقد أعطت أهمية كبيرة في العملية الاتصالية التي تتم بين مرسل ومستقبل وفي ظروف معينة - لعنصر القيم كأساس لبناء ونجاح العملية الاتصالية ، وترى بأن الإعلام إنما هو رسالة وأن أهم ما يمكن أن تقاس به الرسالة هو القيم التي تمثلها تلك الرسالة .